القـــدار

عينا قدور تحملان كثيرا من الأسرار ...
تحملان التاريخ ...
تحملان النـار ...
تحملان الفيضان ...
تحملان الاخضرار ...

كل شيء بـدأ ، عندمـا تجمعوا عند مدخل المعمل واقفين ككتلة صخرية وفي عيونهم قـد أزهر حلم عربيد سقـاه عرق اسفلتي أفرزته عضلات السواعد التي أوهنها مص بوكريشة الوحشي ٠

هذا الصباح الذي تعصف فيه الريح في غضب ، فتحرك في صدورهم تراكمات تغلي كبركان ، لا يشبه كل الأصباح ٠

هذا الصباح الذي تكتلت في سمائه سحب حبلى ، ينظرون اليها فيشعرون بهاجس الالتحـام ينادي في أعماقهم ، لا يشبه كل الأصباح ٠

هذا الصباح الذي يلوح في نهاية أفقه برق ، يتطلعون اليه، حتى يقصف الرعد ، فيهز صدورهم ، لا يشبه كل الأصباح ٠

كل شيء ينذر بهبوب عاصفة ٠

الشعور بخطر الحدث حبل متين شدت عليه أيديهم في حزم ، قلوبهم حلقات سلسلة ترابطت وتوحدت نبضاتها ، الدم في عروقهم يجري .. يحترق .

لاح البرق محدثاً تصدعاً في هذا الغطاء الهائل سرعان ما انجبر ، تلاه دوي اعتصرت له السماء فتنازل رذاذ تصعدت أثره رائحة التراب الثقيلة الى أنوفهم تملؤها ، كما ملأ أسماعهم صوت صافرة المعمل الأرعن الذي يرتفع كل صباح ليندفعوا اندفاعا الى داخل المعمل الذي فتح بابه الكبير .

تهاوى الصوت .. تلاشى .

لكن الأقدام ثبتت معلنة عن رفضها للانقياد .

امتص جوف المعمل ـ عبر الباب ـ كمية من الريح الباردة تلاشت بين الماكينات الصماء القابعة في صمت حدادي البادية كأشباح متكومة كانت قد عرفت الحياة ، تسلط عليها اللمبات الكهربائية من أعلى ، في استهتار ، ضوءاً يكشف عن عجزها .

لم يرق بوكريشة كثيرا هذا الصمت الذي أحسه يهوي به الى أعماق سحيقة .

كل خطوة عبر قاع هذا الصمت ، بين الآلات الخرساء ، كان يكلفه كمية من الدم تحترق .

بدأ الغليان يصل الى مخه . عملية تنفسه فقدت رتابتها . أفرزت جبهته حبات من العرق . أحس بمزيج من الملوحة يتسرب الى لسانه . لم يدر كيف بلعه رغم قرفه .

لم يكن يعرف قبل الآن أن العرق مالح الى هذه الدرجة !.

تحرك في صدره وحش الحقد الضاري مرتعد الفرائص مكشرا عن أنياب صفراء لم تزل بقايا الجيفة عالقة بها وكشف عن مخالب معقوفة لشق الصدور ، ليصرخ في أعماقه :

أيها الأشقياء !. سيكلفكم غالياً تآمركم علي . متى تعلمتم العصيان أيها الجياع ؟. ولكن لا تنخدعوا .. سأفتت صفكم ولن تقوم لكم بعد اليوم قائمة .

انك أنت أيها الشقي .. قدور بولحية !. كنت دائما أخشاك . عكرت صفو جو المعمل . كان عمالي نعاجاً تساق بمشيئتي فتدر كثيرا . فنزلت عليهم كشيطان بلبلت أفكارهم وجعلتهم يلتفون حولك فيساومونني ويطالبون بأشياء ما كان لآبائهم أن يحلموا بها . سأنتقم منك أيها الشقي !. سأعزلك .

وقف عند مدخل المعمل يتوسط الباب .

هذا الصباح بدا لهم بوكريشة مغايرا تماما . كالح الوجه ، أقصر وأضخم أكثر ، غابت عيناه وراء نظارتين . وتدلت من عنقه الغليظ ربطة تلاعبها الريح .

بدأت المهابة الشفافة التي كانت تغلفه تتصدع لتنهار متفتتة عند قدميه اللتين كانتا تقاومان في محاولة للثبات أمامهم .

بحث في عيونهم ووجوههم عن السر الذي يجعلهم يواجهونه هكذا بلا تحفظ ، فلم ير غير شبح التحدي يتربص بوحشه

الضاري لحصد عنقه واصرار عنيد كمطرقة ضخمة ترفعها يد خشنة لدقه .

واجهته عينا قدور اللتان تلاحقانه ، تحملان كثيراً من الأسرار الخطيرة . هذا ما أدركه بوكريشة . تحملان سر التاريخ .. تحملان الفيضان .. تحملان النار .. تحملان الاخضرار .

استنفر كل قواه لاعتصار ابتسامة يدهن بها وجهه الكالح فكانت صفراء زادته بشاعة . وكشفت الستون عينا ـ التي أحسها تأكل مخه ـ من جديد وجهاً آخر لانسان واحد .

اختلط صوته بريبة نتنة حين قال وعيناه تتيهان في بحر عيونهم :

ـ ما لكم هذا الصباح ؟ لست أدري ماذا جرى ان البرد شديد .. هيا الى الداخل .. المعمل .. معملكم رحمة ربي واسعة .

هربت يدا قدور الى ابطيه تبحثان عن الدفء ، بينما كانت الايدي الاخرى تحت الجلاليب أو في الجيوب تقاوم هذا الصقيع الذي يصفع الوجوه فتحمر له الأنوف ..

تبادلت أعينهم كلاما ..

تناولت كيفية الرد ..

قررت !..

ارتفع صفير قطار أجش في نبرته إعلان عن رفضه الانتظار المقيت .

وفي الأفق ، بعيدا ، لاح البرق من جديد .

أحس بوكريشة أنه يطأ الوحل .. أن الارض تحاول ابتلاعه فقاوم متشبثا بكلمات راشيات :

أنا أعرف مشاكلكم أكثر من غيركم . ولذا بادرت باعطاءكم علاوات وسأسوي كل مشاكلكم في القريب ان شاء الله . ولكن دعونا من فكرة : الفرع الذ .. قا .. بي .

اهتز قدور .. ضغط أسنانه .. مسح لحيته في عصبية ودار نحو رفاقه ..

كانوا كالرعد يدمدمون .

التفت الى بوكريشة فوجده بين المدير والمحاسب يحشد طاقاته لرد الفعل ، فعلق وعيناه في رحلة بين بوكريشة ورفاقه الذين انتبهوا :

ـ أسمعتم ؟ أريتم ؟.. أرأيتم موقفه الصريح من مطلبنا الشرعي ؟

قاطعه صوت من وسط الجماعة :

ـ عليه أن يختار بين أمرين : قبول المطلب أو متابعة الاضراب ..

علق المدير ، في حين كان بوكريشة يتخبط في حمأة النتائج الوخيمة التي تكاد تغرقه :

ـ متى تعلمتم القيام بالاضراب ؟

قاطعه قدور في استهجان :

– يوم تعلم أمثالك ادارة المعامل !·

قال المحاسب مشيرا باصبع التهمة الى قدور في استهتار :

– هذا كافر ·· انه يقودكم الى الهاوية · كان أولى بكم أن تجاهدوه ··

قاطعه أحد العمال الذي خرج عليه من وسط الجماعة في حين ابتسم قدور ابتسامة ساخرة من المحاسب ، وقال يقرعه :

– أنت ·· يامن زار قبر النبي ·· بأي مال زرته ؟ أنت· يامن يدعونا الى اتقاء الرب · هل تتقيه فينا عندما تسرق أجرة بعض ساعات عملنا بحجج واهية ؟·

وأضاف الذي بجانبه ساخرا :

– حين نحتاج في يوم من الأيـام الى من يعظنا سنتوجه الى المسجد أيام الجمعة ·

وارتفعت ضحكة مدوية نزلت صاعقة على رأس المحاسب فدكته ·

همس بوكريشة في أذن المدير :

– أرأيت أولاد العاهرات ؟

ثم تدخل رافعاً يديه في محاولة للتهدئة :

– لا لزوم لهذا كله · ان محاسبي سي الحاج يوجه اليكم

نصيحة أب مخلص لأبنائه ، وأزيد فأوجه اليكم بدوري نصيحة زميل لزملائـه ·

وأشار الى قدور عيناه تحاولان السيطرة على الموقف :

– ان هذا الانسان يتلاعب بمصيركم ومصير عائلاتكـم

ودوى صوت جماعي كرعد هز أركانه :

– لا ···

– اسمحوا لي بأن أتابع ··

– لا ···

قال أول :

– أنت الذي تتلاعب بمصيرنا ·

قال ثان :

– قدور هو نحن ونحن هو قدور ·

قال ثالث :

– لا عمل بدون قدور ·

قال رابع :

– لا عمل بدون فرع نقابي ·

استشاط بوكريشة وهدد :

– سأطردكم جميعا · وأشغل عمالا آخرين ·

قاطعه قدور :

– لا نسمح لأي أحد غيرنا بدخول المعمل ·

ارتفع صوت العمال معلناً :

– لا أحد غيرنا يدخل المعمل ·

بحركة لا ارادية كان بوكريشة يدفع خادميه المحاسب والمدير الى داخل المعمل · توقف · ثم تراجع ليواجه العمال · كانت نظراتهم طعنات تصيب صدره · عدل عن الكلام · دار في عصبية وواصل سيره ، وقع أقدامه يصمه ، وردود العمال – الذين التفوا حول قدور – مناقير طيور حادة تنقر مخه ·

قال قدور منبهاً مقوياً العزيمة بنبرة المجرب :

– لقد وقع حين كشف عن نواياه · نحن نقترب من الانتصار · تحلوا بطول النفس والاستمرار في هذا الموقف ·

توحدت نبضات قلوبهم أكثر ، وسرى بينهم طيف يحمل رايات الوحدة يبارك فتحركت جوارحهم تحيي · قطع عليهم حبل هذا الشعور صوت المدير الأجش الذي أعلن مصطنعا نوعاً من الحزم :

– السيد بوكريشة يريد أن يتحادث مع اثنين منكم يمثلانكم ·

شق صوت قدور طريقاً نحو المدير اذ قاطع :

– نريد أن نسمعها منه ·

ردد رفاقه وراءه :

– نريد أن نسمعها منه ·

لبست المدير خيبة عنيدة فعاد يجر أذيالها يتلكع لنظرات العمال التي تصيب ظهره ·

كل العيون كانت ترحل في موكب عبر الباب الى داخل المعمل الذي يملؤه صمت جاثم معاند ·

ومن بين الآلات ، خرج بوكريشة يتقدم مديره ومحاسبه نحو العمال رابطاً يديه وراء ظهره يمضغ في عصبية لقمة الهزيمة ·

جامعة وهران ١٩٧٧/١/٧

★ ★ ★